

جامعة القاهرة

المحاضرات العامة

في العام الجامعي ٥٨ ــ ١٩٥٩

١

رمضان فى الأدب

للأستاذ على الجندى

العميد السابق لكلية دار العلوم والأستاذ بها الآن

محاضرة ألقيت بمقر الجمعية الجغرافية المصرية
مساء يوم الثلاثاء الموافق ١٠ مارس سنة ١٩٥٩

مطبعة جامعة القاهرة
١٩٥٩

بسم الله الرحمن الرحيم

(شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ) .

« قرآن كريم »

« لِلصَّائِمِ فَرْحتَان : فَرْحَةٌ عنـدَ إِفطارِهِ ، وَفَرْحَةٌ عِندَ لِقاءِ رَبِّه » .

« حديث شريف »

رمضان فى الأدب

للأستاذ على الجندى

العميد السابق لكلية دار العلوم والأستاذ بها الآن

اشتقاقه :

الرمض بوزن سبب : شدة الحر ؛ تقول رمض يومنا يرمض رمضا من باب « فرح » : اشتد حره .

والرمض أيضا : شدة وقع الشمس على الرمل وغيره ، وحر الحجارة من شدة حر الشمس .

والرمضاء كحمراء : شدة الحر ، والأرض الشديدة الحرارة ، ومن ذلك قول الشاعر :

كالمستجير من الرمضاء بالنار

وقد اختلف فى اشتقاقه ، فقيل : انه من الرمض ـ وهو شدة الحر كما تقدم ـ قال ابن دريد لما نقلوا أسماء الشهور عن اللغة العربية أسموها بالأزمنة التى وقعت فيها ، فوافق رمضان أيام رمض الحر وشدته فسمى به ، ثم كثر استعمالها فى الأهلة وان لم توافق ذلك الزمان .

ويقال : ان أول من سماها بهذه الأسماء كلاب بن مرة من قريش .

وكان اسم رمضـــان فى الجاهلية « ناتقا » بلا « ال » لكثرة الأموال التى كانت تجبيها العرب فيه • ومن المجاز امرأة ناتق : نفضت بطنهــا : أى أكثرت عيالها ، قال الشاعر :

أبى لهم أن يعرفوا الضيم أنهم بنـــو ناتق كانت كثيرا عيالهــا

وحكى الماوردى : أنه سمى « ناتقــا » لأنه كان ينتقهم : أى يزعجهــم اضجارا بشدته عليهم •

وفى مروج الذهب للمسعودى : أن ناتقا هو « المحرم » •

ولكن يلاحظ أن الفلكيين يقولون : ان التسمية الجديدة للشهور وقعت فى الخريف ، وهو ليس شديد الحر !

ويرى بعضهم : أنه مأخوذ من رمض الصائم ، وهو حر جوفه من شــدة العطش ، أو لأنه يرمض الذنوب : أى يحرقها بالأعمال الصالحة من الارماض ، وهو الاحراق ، وقد جاء فى الحديث الشريف « من صام رمضان ايمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه » •

وقيــل : لأن القلوب تأخذ فيه من حرارة الموعظة والتفكر فى أمر الآخرة ، كما يأخذ الرمل والحجارة من حر الشمس •

وقيل : هو من رمضت النصل أرمضه رمضا : اذا دققته بين حجرين ليرق ! سمى بذلك لأنه شهر مشقة ، يذكر الصائمين بما يقاسيه أهل النار فيها •

وقيل : لأنهم كانوا يرمضون أسلحتهم فيه « يرققونها » ليحاربوا بها فى شوال قبل دخول الأشهر الحرم •

وقيل : انه اسم « من أســمائه ــ تعالى ــ فيكون غير مشتق ، أو يكون مشتقا راجعا الى معنى الغافر : أى يمحو الذنوب ويمحقها •

ويلاحظ أن بعض هذه التعليلات ترجع الى ما بعد ظهور الاسلام ، والمعروف أن رمضان : اسم جاهلى .

وجمع رمضان : رمضانات ، ورمضانون ورمضانين ، وأرمضة كأسلحة ، وأرمض كأسقف .

وله أسماء كثيرة — عدا رمضان — بلغت الستين ، منها : شهر الله ، وشهر الآلاء ، وشهر القرآن ، وشهر النجاة ..

والمشهور فى نطقه أن يسبق بلفظة شهر ، ومثله فى ذلك ربيع الأول ، وربيع الآخر ، ورجب . ولا يذكر الشهر مع بقية الشهور تقول انقضى شعبان ، وأقبل شهر رمضان .

وقد جاء فى الأحاديث الصحيحة بدون لفظة شهر .

ومن الفوائد التى ذكرها القزوينى فى « عجائب المخلوقات » عن جعفر الصادق : أن خامس رمضان الماضى هو أول رمضان الآتى ، وقد امتحنوا ذلك خمسين سنة فوجدوه صحيحا .

وقد فرض رمضان فى السنة الثانية من الهجرة ، وتوفى الرسول — عليه الصلاة والسلام — وقد صامه تسع مرات .

رمضان فى الأدب

لرمضان فى الأدب العربى آثار عميقة خصيبة ، تطالعنا فى النثر والشعر معا ، وتجلو على أعيننا صورا رائعة تنبض بالقوة والحياة ؛ منها المتزمت الخاشع ، ومنها المزور الحيى ، ومنها المرح الفكه ، ومنها المتحرر الماجن .

وجميعها تمثل لنا تمثيلا صادقا ما يختلج فى نفوس الأدباء والشعراء من عواطف ومشاعر لهذا الضيف الملم ، كل على مقدار نصيبه من وثاقة الخلق ،

وقوة الارادة ، والاستجابة لدواعى الخير ، والانصياع للوازع الدينى ، ورعاية آداب المجتمع .

وليس هذا بعجيب اذا عرفنا : أن رمضان مرموق الطلعة بين الشهور العربية ، سنى المنزلة فى الشريعة الغراء ، عظيم الحرمة فى نفوس المسلمين ، يحمل فى ثناياه نواهى وأوامر ، ومواعظ وزواجر وفرائض وسننا وآدابا لابد من مراعاتها ، ان لم يكن تمسكا بأهداب الدين ، وابتغاء الأجر والثواب ، فتصونا من مواقف التهم والريب ، ودرءا للمذمة واللوم ، وان وجد فى كل عصر من العصور طوائف من الخلعاء والمجان لايخشون الله ولا يخشون الناس .

ومهمة الأدب الأولى أن يصور لنا هذه النوازع المختلفة ، ويعكس تياراتها على مرآته ، بما حملت من خير وشر ، ودر وزبد ، وهو فى الحق لم يقصر فى ذلك .

ظاهرة واضحة :

على أن هناك ظاهرة واضحة جديرة بأن يلتفت اليها ، وهى حرص جميع الطبقات فى العهود الخوالى على صوم رمضان أو التظاهر بصومه — والله أعلم بالسرائر — ثم لايمنع ذلك بعضهم من أن يخلط عملا صالحا وآخر سيئا ، وبعض الشر أهون من بعض !

فالجرأة الصارخة على انتهاك حرمته ، والمجاهرة بافطاره من غير عذر ، تعد من الفلتات النادرة ، فلم يقدم على ذلك الا آحاد من الناس لهم شأن خاص — كما سنبينه .

ويكفى للاحاطة بما كان لهذا الشهر من قداسة فى الزمن السالف أن نعرف أن أبناء الأديان الأخرى : كانوا يوقرون شعور اخوانهم المسلمين ، فلا يطعمون

ولا يشربون أمامهم نهارا • ويروى بعض المؤرخين : أن أحد المجوس رأى ابنه يأكل فى رمضان ، فضربه ، وقال له : هلا حفظت حرمة المسلمين فى رمضان !!•

وبعض هؤلاء كان يصوم رمضان بالفعل كالأديب العظيم أبى اسحاق الصابى •

ولم يتطرق الانحلال الى هذه العادة النبيلة ، الا بعد أن رأى غير المسلمين أن المسلمينَ أنفسَهم لا يرعون حرمة الصيام ، فباتوا لا يرجُون لهم وقارا ، والذنبُ لنا ، وصدق من قال :

اذا أنت لم تعرِف لنفسك حقها   هوانا بها كانت على الناس أهونا

وليس من همنا فى هذا المقال المحدود ، أن نستوفى كل هذه الآثار المتشعبة، وتتعقبها بألوان من التحليل والموازنة والاستنباط ، ولكن حسبُنا أن نرسِمَ خطوطا وملامح لهذا الأدب وما يتصل به ، مشفوعةً ببعض الشواهد المختارة •

آثار رمضان

فمما اختطه هذا الشهر الكريم ما يأتى :

مواعظ رمضان :

١ — استفاضة الخطب والرسائل والمقطوعاتِ الوعظية الحكيمة على لسان المتورعين والنساك كما نرى فى العصر الحاضر ، مما يسمى بأحاديث رمضان فى الصحف والاذاعة •

فمن النثر قول سيد التابعين « الحسن البصرى » : ان الله — تعالى — جعل رمضان مضمار الخلقة ، يستبقون فيه بطاعته الى مرضاته ، فسبق قوم ففازوا ، وتخلف آخرون فخابوا !! فالعجبُ من الضاحك اللاعب فى اليوم الذى يفوز فيه المحسنون ، ويخسر المبطلون !! أما والله لو كشف الغطاء لشُغل محسن باحسانه ، ومسىء باساءته !! •

ومن الشعر ما كتب به أبو منصور الخزرجى الى بعض أصدقائه :

الصوم ضيف ثوى فداره   قد يؤجر العبدُ وهو كاره
واحمل على النفس فى قِراه   فى ليله منك أو نهاره
فالضيف ماض غدا ، ومثن   عليك ان حطت من ذماره

وقول أبى بكر بن عطية الأندلسى :

لا تجعلن رمضان شهر فكاهة   تلهيك فيه من القبيح فنونه
واعلم بأنك لا تنال قبوله   حتى تكون تصومه وتصونه

وقوله :

اذا لم يكن فى السمع منى تصاون   وفى بصرى غض وفى مقولى صمت
فحظى اذن من صومى الجوع والظما   وان قلت: انى صمت يوما فما صمت

وقول آخر :

جاء الصيام فجاء الخير أجمعه   ترتيل ذكر وتحميد وتسبيح
فالنفس تدأب فى قول وفى عمل   صوم النهار وبالليل التراويح

ومن الشعر الحديث قول صديقنا الشاعر المرحوم محمد الأسمر :

رعى الله شهر الصوم أما نهاره   فغاف وأما ليله فهو ساهر
وحيا رجالا حين لاح هلاله   مشت بينهم مشى النسيم البشائر
بطان اذا ما الشمس أرخت قناعها   خماص اذا ما أقبلت وهى سافر
خضوعا لمن فوق السموات عرشه   ويعلم منهم ما تكن السرائر
هو الله فاعبده العبادة كلها   اذا راح يلهو بالعبادة فاجر

أدعية رمضان :

٢ — كثرة الأدعية الجليلة الدقيقة المركزة التى تناسب فضيلة الصيام ، وما يستشرف اليه الصائمون من نفحات البركة والمثوبة ، وقد حوت بعض كتب الأدب صدرا صالحا منها ، نقتطف منه مايلى :

ساق الله اليك سعادة اهلاله ، وعرفك بركة كماله . قسم الله لك من فضله ، ووفقك لفرضه ونفله . لقاك الله فيه ما ترجوه ، ورقاك الى ما تحبه فيما يتلوه . جعل الله ما أظلك من هذا الصوم مقرونا بأفضل القبول ، مؤذنا بدرك البغية ونجاح المأمول ، ولا أخلاك من بر مرفوع ، ودعاء مسموع . قابل الله — تعالى — بالقبول صيامك ، وبعظيم المثوبة تهجدك وقيامك . عرفك الله من بركته ما يربى على عدد الصائمين والقائمين ، ووفقك لتحصيل أجر المتهجدين المجتهدين .

أسأل الله — تعالى — أن يضاعفه بمنه لك ، ويجعله وسيلة بقبوله الى مرضاته عنك . أعاد الله الى مولاى أمثاله ، وتقبل منه أعماله ، وأصلح فى الدين والدنيا أحواله ، وبلغه منهما آماله . أسعده الله بهذا الشهر ، ووفاه فيه أجزل المثوبة والأجر ، ووفر حظه من كل ما يرتفع من دعاء الداعين ، وينزل من ثواب العاملين ، وقبل مساعيه وزكاها ، ورفع درجاته وأعلاها ، وبلغه من الآمال منتهاها ، وأظفره بأبعدها وأقصاها !!

ويتصل بذلك أدعية أدبية ، فيها فكاهة ومرح وانطلاق لايجافى الحد المقبول . من ذلك قول ابن العميد من رسالة : أسأل الله أن يعرفنى بركته ، ويلقينى الخير فى باقى أيامه وخاتمته ، وأرغب اليه أن يقرب على الفلك دوره ، ويقصر سيره ، ويخفف حركته ، ويعجل نهضته ، وينقص مسافة فلكه ودائرته ، ويزيل بركة الطول عن ساعاته ، ويرد على غرة شوال ؛ فهى أسنى الغرر عندى ، وأقرها لعينى ، ويطلع بدره ، ويرينى الأيدى متطلبة هلاله ببشر ، ويسمعنى النعى — لشهور رمضان ، ويعرض على هلاله أخفى من السحر ، وأظلم

من الكفر ، وأنحف من مجنون بنى عامر ، وأبلى من أسير الهجر ، وأستغفر الله — جل وجهه — مما قلت ان « كرهه ، واستعفيه من توفيقى لما يذمه ، وأسأله صفحا يفيضه ، وعفوا يوسعه ، انه يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » .

وقفى بديع الزمان الهمذانى على نهجه فى رسالة بعث بها الى بعض أهل همذان ، وهى : كتابى — أطال الله بقاءك — عن شهر رمضان ، عرفنا الله بركة مقدمه ويمن مختتمه ، وخصك بتقصير أيامه ، واتمام صيامه وقيامه ، فهو — وان عظمت بركته — ثقيل حركته ، وان جل قدره ، بعيد قعره ، وان حسن وجهه ، فليس يقبح قفاه ، وما أحسنه فى القذال (١) ، وأشبه ادباره بالاقبال ، جعل الله قدومه سبب ترحاله ، وبدره فداء هلاله ، وأمد فلكه تحريكا ، بتقضى مدته وشيكا ، وأظهر هلاله نحيفا ، ليزف الى اللذات زفيفا ، وعفا الله عن مزح يكرهه ، ومجون يسخطه !!

تهانى رمضان :

٣ — رفع التهانى بحلوله الى الخلفاء والأمراء والولاة والاخوان ، ولا يزال هذا الرسم مرعيا الى هذا العصر ، وسيدوم الى آخر الدهر ان شاء الله تعالى !! فمن ذلك قول الشريف الرضى — يهنىء الخليفة «الطائع» العباسى — :

تهن قدوم صومك يا اماما　　يصوم مدى الزمان عن الأثام
اذا ما المرء صام عن الدنايا　　فكل شهوره شهر الصيام

وقول عبد الصمد بن بابك — يهنىء الصاحب بن عباد — :

كساك الصوم أعمار الليالى　　وأعقبك الغنيمة فى المآب
ولا زالت سعودك فى خلود　　تبارى بالمدى يوم الحساب

---

(١) القذال بفتح القاف : جماع مؤخر الرأس .

ولابن الرومى أرجوزة طويلة فريدة فى مبانيها ومعانيها يهنىء بها ابن « يحيى » منها :

سيشكر الشهر لك الحرام — أنك لما هرّه الطغام
ونبحت فى وجهه اللئام — ولم يعظم حقه أقوام
فيهم عليه بالخنى اقدام — كأنهم من جهلهم أنعام
ليس على أفواههم ختام — ولا لضيف عندهم ذمام
بش به منك فتى بسام — طلق المحيا ما جد مقدام
أبيض يستسقى به الغمام — سامية همته همام

وقول المطرانى لبعض الرؤساء :

شهر الصيام جرى باليمن طائره — عليك ما جد باديه وحاضره
ودام قصرك مرفوعا مجالسه — لزائريه ، ومنصوبا موائده
ودام صدر عظيم أنت ماهده — وعش لملك عزيز أنت واحده
فأنت منظره الأبهى وناظره الأعلى — ومنكبه الأقوى وساعده

شهر بر وانفاق :

٤ — اقامة المآدب الحافلة ، وصنع الأطعمة الفاخرة ، واظهار التجمل بالاسراف فى الانفاق حتى من الطبقات المتوسطة والاكثار من الصدقة وأنواع البر .

وقد وصف الرسول — عليه الصلاة والسلام بأنه أجود الناس ، ولكنه كان فى رمضان أجود بالخير من الريح المرسلة ، لا يسأل عن شىء الا أعطاه .

وكان رؤساء الدول الاسلامية يتخذونه مجالا للافضال على المحاويج ، واطعام الفقراء ، وصلة الاخوان ، واجزال الهبات لذوى القربى والأرحام ، وكان

---

(١) هره : كرهه .

للخلفاء الفاطميين من ذلك الحظ الأوفر حتى ضربت بهم الأمثال ! ويضيق المقام عن ذكر أخبارهم التى طرزت بها أعلام التاريخ ، ويكفى أن نعلم أنه كان فى أول يوم من أيام رمضان يرسل من دار الخلافةلجميع الأمـراء وغيرهم من أرباب الرتب والخدم ، لكل واحد طبق ، ولكل واحد من أولاده ونسائه طبق فيه حلواء ، وبوسطه ، صرة من ذهب ، فيعم ذلك سائر أهل الدولة ، ويقال لذلك : غرة رمضان .

وممن كان يحتفل بهذا الشهر الصاحب بن عباد ؛ يقـول أبو الحسن النحوى : سمعت الصاحب بن عباد يقول : حضرت مجلس ابن العميد عشية من عشايا رمضان ، وقد حضرت الفقهاء والمتكلمون للمناظرة — وأنا اذ ذاك فى ريعان شبابى — فلما تقوض المجلس ، وانصرف القوم وقد حل الافطار ، أنكرت ذلك بينى وبين نفسى ، وعجبت من اغفاله الأمر بتفطير الحاضرين مع وفور رياسته ! فعاهدت الله ألا أخل بما أخل به ، اذا قمت يوما مقامه .

قال : فكان الصاحب لا يدخل عليه أحد فى شهر رمضان بعد العصر كائنا من كان فيخرج من داره الا بعد الافطار .

وكانت داره لا تخلو ليلة من ليالى الشهر من ألف نفس تفطر فيها . وكانت أعطياته وصدقاته ونفقاته فى هذا الشهر ، تبلغ ما يطلق منها فى جميع السنة !! .

مجان رمضان :

٥ — مجاهرة قلة من الناس بعدم صيامه ، وتوطين النفس على ذلك مع التبجح والاستخفاف — وقد أشرنا الى ذلك من قبل — وفى هذا يقول الأخطل :

ولست بصائم رمضان عمرى ولست بآكل لحم الأضاحى
ولست بصائح فى جنح ليل كمثل العير حى على الفلاح

والأخطل لا يطلب منه صوم رمضان ؛ لأنه كان مسيحيا ، ولكن هذا القول الجرىء منه فى غضاضة الاسلام ، يدلنا على مبلغ ما كان يتمتع به الشعراء من حرية فى هذا العهد ، وعلى ما كان لهذا الشاعر خاصة من مكانة ، حتى كان يدخل على عبد الملك بن مروان ، والخمر تفوح من فيه ، وتتحادر من لحيته !!.

وأقبح من ذلك وأدل على رقة الدين وضعف اليقين ، والتهتك الصريح قول الشاعر العباسى : ديك الجن الحمصى :

وحيـــاة ظبى لم أصم عن ذكره ... الا عضضت تنـدما ابهـامى
لأشافهن من الذنوب عظامهـــا ... ينقد عنهـا جلد كل صـيام

ومن النوادر فى ذلك : أن اعرابيا باشر الصيام ، فلما اشتد عليه أفطر ؛ فقالت له زوجته أو بنته : ألا تصوم ؟ فقال يجيبها :

أتأمرنى بالصـــوم لادردرها ... وفى القبر صـوم يا أميم طويل

ومر رجل بأعرابى يأكل فى رمضان ، فقال له : ألا تصوم يا أعرابى ؟ فقال :

وصـائم هب يلحـانى فقلت له ... اعمد لصـومك واتركنى لافطارى
واظمأ ، فانى سأروى ثم سوف ترى ... من ذا يصير اذا متنا الى النـار

وقدم أعرابى على ابن عم له بالحضر فأدركه رمضان ، فقيل له : لقد أتاك شهر رمضان !

فقال : وما شهر رمضان ؟ قالوا : الامساك عن الطعـام ! قال : أ بالليل أم بالنهار ؟!

قالوا : لا ، بل بالنهار ! قال : أفيرضون بدلا من الشهر ؟ قالوا : لا . قال : فان لم أصم فعلوا ماذا ؟

قالوا : تضرب وتحبس !

فصام أياما فلم يصبر ، فارتحل عنهم وجعل يقول :

يقول بنو عمى ــ وقد زرت مصرهم ــ
تهيأ ــ أبا عمرو ــ لشــهر صــيام
فقلت لهم : هاتوا جــرابى ومزودى(١)
ســلام عليكم فاذهبــوا بســلام
فبــادرت أرضــا ليس فيهــا مسيطر
على ، ولا منــاع أكل طعــام

ودخل عيينة بن حصن الفزارى ــ وكان معروفا بالحمق ــ على عثمان ــ رضى الله عنه ــ فقال له : هل لك فى العشاء ؟ فقال : انى صائم ! فقال عثمان : أمواصل ؟ قال : وما الوصال ؟ قال : تصوم يومك وليلتك ويومك حتى تمسى . قال : لا ، ولكنى وجدت صيام الليل أيسر على من صيام النهار !!

وقُدِّم أعرابى الى الوالى ، فقيل له : انه أفطر فى رمضان . فقال الاعرابى : ان الله يعلم أنى صائم ، ولكن وجدت حماوة فى فؤادى ، فأردت أن أطفئها بجرعة ماء ! !

وهذا ليس بغريب من الأعراب ؛ لأن كثيرا منهم التحف الاسلام ولم يتبطنه ، ولجهلهم بأحكام الشريعة لبعدهم عن مصادرها .

صوم مع تكره :

٦ — قيام بعض الشعراء بصومه ، مع السخط عليه والتبرم به ؛ لأسباب كثيرة :

منها عدم اعتياد الصوم ــ والعادة تسهل الصعب ــ كهذا المجوسى الذى أسلم وأدركه رمضان فصامه ، ولكن ألح عليه الجوع والعطش فقال :

وجدنا دينــكم ســهلا علينــا ... شرائعه ســوى شهر الصــيام

(١) المزود كمنبر : وعاء الزاد

ومنها الشعور بوطأة الحرمان من متع الطعام والشراب والنساء كقول شاعر :

الغوث من شهر الصيام   اذ صار لى مثل اللجام
ما ان أمتع بالنساء   وبالطعام وبالمدام

وقول آخر :

رمى رمضان شملنا بالتفرق   فياليته عنا تقضى لنلتقى
لئن سر أهل الأرض طرا قدومه   فان سرورى بانسلاخ الذى بقى

وقول بعض كتاب الشعراء :

ثقل الصوم علينا   أثقل الله عليه
زارنى بالأمس بدر   كنت مشتاقا اليه
فمضى لم أقض منه   حاجة كانت لديه

ويقول الأقيشر الشاعر — وقد منعه ابن عم له يدعى سعيدا من شرب الخمر فى رمضان — :

اما ترانى قد هلكت فانما   رمضان أهلكنى ودين سعيد
هذا يصردنى فلست بشارب   وأخ يؤرقنى مع التصريد (١)

ومنها الضيق بطول أيامه ، ومن عادة التعب والجهد والمشقة أن تجعل الأيام طويلة على من يعانيها ، حتى ولو كانت قصيرة فى الواقع ، وصدق أبو فراس الحمدانى فى قوله :

تطول بى الساعات وهى قصيرة   وفى كل دهر — لا يسرك — طول

---

(١) التصريد : التقليل ، والسقى دون الرى .

ابن الرومى ورمضان :

وقد أبدع فى تصوير طول أيام الصوم ابن الرومى فى غير مقطوعة ، بما رزقه من دقة الوصف ، والغوص على المعانى البعيدة ، وتأليف الأخيلة البارعة ، والقدرة على توليد الأفكار واستقصائها ورهافة الحاسة الفنية المستوعبة ، هذا الى شغفه بالذم والهجاء ، والذهاب كل مذهب فى التهكم والسخرية .

يقول — سامحه الله — :

شهر الصيام وان عظّمتُ حرمته
شهر طويل ثقيل الظل والحركه
يمشى الهوينى فأما حين يطلبنا
فلا « السُّليك » يدانيه ولا « السُّلكه » (١)
كأنه طالب وترا على فرس
أجد فى اثر مطلوب على رمكه (٢)
أذمُّه غير وقت فيه أحمده
منذ العشاء الى أن تسقع الديكه (٣)
وكيف أحمد أوقاتا مذممة
بين الدءوب وبين الجوع مشتركه
يا صدق من قال : أيام مباركة
ان كان يكنى عن اسم الطول بالبركه
شهر كأن وقوعى فيه من قلقى
وسوء حالى وقوع الحوت فى الشبكه

---

(١) السليك : شاعر لص عداء فتاك . والسلكة : الأنثى من فراخ القطا أو الحجل .

(٢) الرمكة بوزن بلحة : الفرس ، والبرزونة تتخذ للنسل .

(٣) تسقع : تصيح

لو كان مولى وكنا كالعبيد له
لكان مولى بخيلا سيىء الملكه
قد كاد لولا دفاع الله يسلمنا
الى الردى ويؤدينا الى الهلكه

ويقول — عفا الله عنه — :

رمضان يزعمه الغواة مبارك صدقوا وجدّك انه لطويل
شهر لعمرك لا يقل قليله وكذا المبارك ليس فيه قليل
تتطاول الأيام فيه بجهدها فكأن عهد الأمس منه مُحيل
لو أنه للقاطنين مسافة لحسبت أن الشّبر منه الميل

ويقول — غفر الله له — :

شهر الصيام مبارك لكنما جعلت لنا بركاته فى طوله
من كان يألفه فليت خروجه عنى بجدع الأنف قبل دخوله
شهر يصد المرء عن مشروبه مما يحل له وعن مأكوله
لا أستثيب على قبول صيامه حسبى تصرمه ثواب قبوله

ويقول — تغمده الله بصفحه — :

اذا بركت فى صوم لقوم دعوت لهم بتطويل العذاب
وما التبريك فى شهر طويل يطاول يومه يوم الحساب
فليت الليلَ فيه كان شهرا ومرّ نهاره مر السحاب
فلا أهلا بمانع كل خير وأهلا بالطعام والشراب

ولكن نحمد لابن الرومى أنه مع ذلك كان يصوم رمضان ، والله سبحانه يقول : « ان الحسنات يذهبن السيئات » .

رمضان فى الربيع :

وكان هؤلاء الشعراء أكثر تبرما برمضان اذا جاء فى فصل الربيع ، فصل التفتح والتيقظ والبهجة والنشوة والايناس .

يقول الخالدى فى ذلك :

ان شهر الصيام اذا جاء فى فصل ربيع أودى بحسن وطيب

ويقول ابن عون الكاتب :

جاءنا الصوم فى الربيع فهلا اختار ربعا من سائر الأرباع
وكأن الربيع فى الصوم عقد فوق نحر غطاه فضل قناع

رمضان فى نظر بعض الشعراء :

٧ — ظهور نوع من المجون فى الشعر يخص رمضان ، ويهاجم حرمته فى رفق مرة وعنف أخرى . وفيه تصريح : بأنه كغيره من الشهور ، مسرح خصب للمتع واللذات ، بل لعل اقتناص المباهج فيه أسهل وأيسر .

والعجيب صدور هذا عن بعض الصدور من الرؤساء الذين عرفوا بالتوقر والحشمة ، وأحسب أن هذا الشعر نوع من التفاصح أو المكايدة والاثارة والمغايظة لأهل التحرج والصلاح !

يقول الصاحب بن عباد :

قد تعدوا على الصيام وقالوا حرم الصب فيه حسن العوائد
كذبوا فى الصيام للمرء مهما كان مستفظعا أتم الفوائد
موقف بالنهار غير مريب واجتماع بالليل عند المساجد

ويقول متغزلا على سبيل المغالطة والتوريط :

راسلت من أهواه أطلب زورة فأجابنى أو لست فى رمضان

فأجبتـه والقلب يخفـق صبـوة　　أتصـــوم عن بر وعن أحســـان
صـم ان أردت تحـرجا وتعفـفا　　عـن أن تكد الصب بالهجـــران
أولا فزرنى والظـلام مجـــلل　　وأحســـبه يوما مر من شعبـان

ويقول ابن بسام صاحب الذخيرة :

سقيــا لشهر الصــوم من شـهر　　عنـــدى له ماشـــاء من شـــكر
كم مـن غـرير فيـــــه فزنا به　　أنهضـــــه الليـــل مـن الوكر
وكم امام كان لى وصـــــلة　　الى كحيـــل العـين بالسحـــر
وخـــلة زارتك مشتــــاقة　　فى « ليـــلة القـدر » على قـدر
فانصرف النـــاس بمـــا أمـلوا　　وبـؤت بالآثـــــام والـــوزر

وقوع رمضان فى الواوات :

وكان القدماء يطلقون على مابعد العشرين من الشهر : « الواوات » •

وكان أهل بغداد يقولون لرمضان بعد العشرين : وقع فى الأنين •

وبعضهم يقول : وقع فى الواوات •

وفى ذلك يقول ابن المعتز :

قد قرب الله منه كل ما شـبعـا　　كأننى بهـلال الفـطر قد لمعـا
فخـــذ لفطرك قبل العيد أهبتـــه　　فان شهرك فى الواوات قد وقعا

وابن المعتز فى استعداده مقدما لمبـاهج شـوال ، يتأسى فى ذلك بالفرزدق فانه بدلا من أن يعتكف فى العشرة الأخيرة من رمضان ـــ كمـا تقضى بذلك السنة ـــ نراه يتهيأ فيها للقاء حبائبـه اذا انقضى الصيام ، فيراسلهن مقـدما ويراسلنه ، كأن الأمر يحتاج الى أهبة سابقة •

وقد أتى فى ذلك بمعان قال عنها أبو هلال العسكرى : انهـا من المعـانى المبتكرة التى لم يسبق اليها ، يقول الفرزدق :

اذا ما مضى عشرون يوما تحركت أراجيف بالشهر الذى أنا صـائمه
وطارت رقاع بالمواعـد بيننـا لكى يلتقى مظلوم قـوم وظـالمه
فان شـال شـوال تشل فى أكفنّا كئوس تعادى العقل حين تسالمه (١)

معان طريفة :

٨ — أوحى الى الشعراء وغيرهم كثيرا من المعانى الطريفة فى الوصف والمدح والغزل والهجاء والتندر والملح والمفاكهات كما أمدهم بكثير من صور البيـان الفائقة الخلابة !!

من ذلك قول شاعر فى امرأة :

نبئت أن فتـاة كنت أخطبهـا عُرقوبها مثل شهر الصوم فى الطول

وقول ابن سكرة الهاشمى يصف سوء حاله :

وهنـوا بالصـيام فقلت مهلا فانى طـول عمرى فى صـيام
وهـل فطر لمن يمسى ويضـحى يؤمِّل فضـل أقوات اللئـام

وقـوله :

أما الصـيام فشىء لست أعـدمه مـدى الزمـان وان بت افطـارا
أغشى أناسا فأغشى فى منـازلهم جـوعا على ولا أغشى لهم نـارا

وقول أسامة بن منقذ فى السلطان نور الدين محمود :

سلطاننا زاهد والنـاس قد زهدوا له فكل على الخـيرات منكمش
أيامه مثل شـهر الصوم خاليـة من المعاصى وفيها الجوع والعطش

---

(١) شال : ارتفع والمراد : انقضى .

وقول أعرابى يتغزل ــ وقد عرض لذكر ليلة القدر ــ :

ألا حبــذا البُرد الذى تلبسـينه ... ويا حبـذا من باعك البرد من تجر
فلـو كنت ماء كنت ماء غمـامة ... ولو كنـت درا كنت من درة بكر
ولو كنت لهوا كنت تعليل سـاعة ... ولو كنت نوما كنت اغفـاءة الفجر
ولو كنت ليـلا كنت قمراء ُجنبت ... نحوس محاق الشهر أو ليلة القـدر

وقول المحِّسن ــ يمدح وذكر ليلة القدر أيضا ــ :

نلت فى ذا الصـيام ما ترتجيـه ... ووقاك الاله ما تتقيــــه
أنت فى النـاس مثل شـهرك فى ... الأشهر بل مثل ليلة القـدر فيـه

وقول اللحام الحرانى فى بخيل :

على عــدد القــوم رغفـانه ... فلســت ترى لقمـة زائده
أرى الصــوم فى داره للفتى ... ــ اذا حلهـا ــ أعظم الفـائده

وقول ابن العميد فى قاض مفطر :

يا قاضـيا بات أعمى ... عن الهـلال السـعيد
أفطـرت فى رمضـان ... وصمت فى يوم عيـد

والابداع هنا فى ذمّه بالجمع بين افطار رمضان وصوم العيد ، فكلاهما حرام ومنكر فى الدين •

ومن النكات الطريفة : أن أبا القاسم بن القطان دخل على الوزير ابن هبيرة فى يوم شديد الحر من أيام رمضان ، وعنـده نقيب الأشراف ــ وكان يرمى بالبخل ــ •

فقال له الوزير : أين كنت ؟ فقال : كنت فى مطبخ سيدى النقيب !

فقال الوزير : ويلك ! أفى شهر رمضان فى المطبخ ؟

فقال : نعم ! كنت أكسر الحر فيه ! !

فتبسم الوزير . وضحك الحاضرون ، وخجل النقيب !!

وقيل لأعرابى : بم تتسحر الليلة ؟

فقال : باليأس من فطور الليلة القابلة .

شعبان شهر قصف :

وكان الشعراء يحث بعضهم بعضا على انتهاب اللذات فى شعبان ، استعدادا لاحتمال الحرمان فى رمضان ، وفى ذلك يقول محمد بن عبد الله الجعفرى :

هـــل لك فى صهبـــاء مشمولة ... ليست من الدبس(١) الذى يُنبــذ
فان شـــعبان على طيبـــه ... درب — اذا فكرت — لا ينفـــذ

فاذا اتفق أن كان آخر شعبان يوم شك ، احتفل به الشعراء احتفالا منقطع النظير ، واستنفدوا الجهد فى اعطاء أنفسهم كل ما اشتهت ، وكأنهم يريدون أن يستجمعوا فيه دفعة واحــدة كل المتع التى سيحرمونها فى رمضـــان ، وقد سجلوا ذلك فى مقطعات كثيرة مرحة ضاحكة ! !

كتب الحسن بن رجاء الى صديق له فى يوم شك أفطر فيه الخليفة الواثق :

هززتك للصـبوح وقــد نهـــانا ... أمير المؤمنين عـــن الصـــيام
وعنـــدى من قنـــان المصر عشر ... تطيـــب بهن دائرة المـــدام
فكن أنت الجـــواب فليس شىء ... أحب الى من حـــذف الـــكلام

وتنزه أبو نواس ذات مرة مع أبى عيسى بن الرشـيد « بالقُفص » — بلدة بين بغداد وعكبراء — فى أواخر شعبان .

---

(١) الدبس بالكسر وبكسرتين : عسل التمر وعسل النحل .

فلما كان اليوم الموفى ثلاثين ، قيل لأبى نواس : هذا يوم شك وبعض الناس يصومه احتياطا •

فقال أبو نواس : ليس الشك حجة على اليقين ، حدثنا أبو جعفر يرفعه الى الرسول — صلى الله عليه وسلم — أنه قال : « صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته »

ثم التفت الى أبى عيسى فقال :

لو شئت لم نبرح من القفص   نشربها حمراء كالفص
نسرق هذا اليوم من شهرنا   فالله قد يعفو عن اللص

وكتب البوشنجى الى بعض أصدقائه :

فديتك هذا اليوم يوم وراءه
ثلاثون يوما باللذاذة تفتك
فان شئت فاحضرنا وان شئت فادعنا
اليك فما للهو فى اليوم مترك
وفى الغد — ان لم يدفع الشك — مجزع
ومبكى فدعنا اليوم نلهو ونضحك

وكتب كشاجم الى صديق له أديب اسمه « على » عاشت الأسامى :

هو يوم شك يا على   وبشره — مذ كان — يحزر
والجو حلته ممسكة   ومطرفه معنبر
والماء فضى القميص   وطيلسان الأرض أخضر
نبت يفتق زهره   فى الروض قطر ندى تحدر
ولنا فضيلات تكو   ن ليومنا قوتا مقدر
ومدامة صفراء أد   رك عمرها كسرى وقيصر
فانشط لنا لنحث من   كاساتنا ما كان أكبر
أولا فانك جاهل   ان قلت : انك سوف تعذر

وقال ابن الحجاج :

اشـــربوها فكل اثم عليـكم ان شـــربتم بالرطل فى ميزان
فى ليـال لو أنهـــا دفعتنى وسط ظهرى وقعت فى رمضـان

ومراده : أواخر ليالى شعبان • وهو من الارداف البديعى ، وتعريفه : أن يريد المتكلم معنى فلا يعبر عنـه بلفظه الموضوع له ، بل يعبر عنه بلفظ يؤدى معناه •

وصف الأهلة

وقد استوجب صوم رمضان العناية بأربعة أنواع من الأهلة ، وهى هلال شعبان لارتباطه بأول رمضان • وهلال الشك ، وهلال رمضان ، وهلال شوال وهذه القيمة الدينية استتبعت قيمة أخرى أدبية ، فكثر وصف الشعراء للأهلة الثلاثة الأخيرة على مدى العصور ، حتى من الشعراء غير المعروفين بالتدين •

أما هلال شعبان فالعناية به دينية بحتة ، لهذا لم يحتفل به الشعراء •

(ا) هلال الشك :

ويكون فى أول رمضان وآخره ، لأن الصيام والافطار يجبان برؤيتـه • وقد قال فيه ابن الوردى •

قلت هلال الصـــيام ليس يرى فلا تصوموا وارضـوا بقول ثقه
فغـــالطونى وحققـوا ورأوا وكل هـــذا من قوة الحـدقه

وقال صادق الرافعى :

هلال الشـك لا تعجب اذا مـا رأيت ــ كما أرى ــ هرج الأنام
فقد حسبوا نحـولك من نحولى فخيف عليـك عاقبـة الغـرام

(ب) هلال رمضان :

وتعنى به الدول الاسلامية وشعوبها عناية فائقة ، وترصد مطالعة حتى تتثبت من رؤيته ، فيتحقق أول الشهر ويحق الصيام ، ويكون ذلك من الأيام المشهورة ، فتؤلف المواكب الدينية ، وتنار مآذن المساجد ، وتحتفل الاذاعات ، وتعلن البشائر والتهانى . وتطلق المدافع ، وينشط رجال العلم والوعظ والارشاد والتصوف .

وكانوا قديما يستزيدون من انارة المساجد عند رؤية هلال هذا الشهر المنير يقول أحمد بن يوسف الكاتب العباسى :

أمرنى الخليفة المأمون : أن أكتب الى جميع العمال فى أخذ الناس بالاستكثار من المصابيح فى شهر رمضان ، وتعريفهم ما فى ذلك من الفضل .

فما دريت ما أكتب ولا ما أقول فى ذلك ، اذ لم يسبقنى اليه أحد ، فأسلك طريقه ومذهبه .

قال : فنمت وقت القيلولة ، فأتانى آت فى منامى ، فقال : اكتب : فان فى ذلك أنسا للسابلة ، واضاءة للمتهجدين ، ونفيا لمظان الريب ، وتنزيها لبيوت الله من وحشة الظلم .

ولم يكن الخلفاء والأمراء يتكبرون على الصعود مع القضاة والشهود الى الأماكن العالية لرؤية هلال رمضان .

يقول الأصمعى : صعدت مع الرشيد ــ رحمه الله ــ علية تنظر الى هلال رمضان ، فقال الأصمعى : يا أمير المؤمنين ، ما معنى قول هند بنت عتبة :

نحن بنات طارق   نمشى على النمارق

فقال الرشيد : الطارق : الكوكب الذى فى السماء .

فقال الأصمعى : أصبت يا أمير المؤمنين •

فأمر له الرشيد بعشرة آلاف درهم !!

نوادر فى هلال رمضان :

يحدثون : أن جماعة ــ فيهم أنس بن مالك الصحابى ــ حضروا لرؤية هلال رمضان ــ وكان قد قارب المائة ــ فقال أنس قد رأيته هو ذاك ! وجعل يشير اليه فلا يرونه •

وكان اياس القاضى حاضرا ــ وهو من هو فى الذكاء ــ فنظر الى أنس واذا شعرة بيضاء من حاجبه قد انثنت فوق عينه •

فمسحها اياس وسواها بحاجبه ، ثم قال له : أنظر يا أبا حمزة ، فجعل ينظر ويقول : لا أراه •

واجتمع الناس ليلة لرؤيته ، فكانوا يحدقون فى الأفق ولا يرون شيئا •

فصاح رجل من بينهم : لقد رأيته ! !

فاستعجبوا من قوة ابصاره ، وقالوا : كيف أمكنك أن تراه دوننا ؟ !

فطرب الرجل لهذا الثناء وصاح : وهذا هلال آخر بجواره •

فضحك الحاضرون منه ! !

وطلبوا ليلة رؤيته ، فقال لهم « أبو مهدية » المضحك : كفوا فما طلب أحد عيبا الا وجده ! !

وصعدوا ليلة لنظره فلم يروه • فلما هموا بالانصراف رآه صبى وأرشدهم اليه ، فقال له أحدهم : بشر أمك بالجوع المضنى ! !

وقيل لرجل : أما تنظر الى هلال رمضان ؟ فقال : ما أصنع به ؟ مُحل دين ، ومقرب حَين « أجل.» ومؤذن بالجوع ! !

ونظر أعرابى الى قوم يلتمسون هلال رمضان ، فقال : أما والله لئن أثرتموه لتمسكن منه بذنابى عيش أغبر ! !

هلال رمضان والشعراء :

وتدل رواية الشعر على أن بعض الشعراء على الأقل لم يكونوا يلقون هلال رمضان بالبشر والحفاوة ! !

يقول ابن الرومى :

انى ليعجبنى تمـــام هـــلاله وأسر بعــد تمـــامه بنحــوله

ويقول أبو الحسين بن سراج الأندلسى ــ معتذرا الى بعض أصدقائه ــ :

وأنا أســأت فأين عفــوك مجمــلا هبنى عصــيت الله فى شـــعبــان
لــو زرتنــى والآن تحمــد زورة كنت الهــلال أتى بلا رمضــان

فهو يجعله هلالا ولكن لغير رمضان .

ويقول بعض الشعراء :

تجلى علينــا هــلال الصــيـــام بنحس على الكأس والبربــط (١)

ولهذا نراهم يشمتون بقمر رمضان حين يدركه النقصان ؛ يقول ابن المعتز :

ياقمرا قد صــار مثــل الهــلال من بعــد ما صــيرنى كالخــلال
الحمــد لله الذى لــم أمــت حتى رأينــاك بــداء السُّــلال

ويقول شاعر فى معناه :

لقــد سرنى أن الهــلال لنــاظرى بدا وهو محقــور الخيــال دقيــق

---

(١) البربط كجعفر : العود .

طواه مرور الشهر حتى كأنه ... عنان لواه باليدين رفيق
وانى لشهر الصوم ماعشت شامت ... وانك ياشوال لى لصديق

ومن رحب به من الشعراء المحدثين : محمد الأخضر السائحى الجزائرى ، وذلك حيث يقول :

املأ الدنيا شعاعا ... أيها النور الحبيب
قد طغى اليأس عليها ... وهو كالليل رهيب
فترامت فى الدياجى ... ومضت لا تستجيب
اسكب الأنوار فيها ... من بعيد وقريب
ضيع الحق لديها ... أهلها فهو غريب
غرهم فيها شباب ... فنسوا حق المشيب
وسباهم فى دجاها ... برق عيش لا يطيب
املأ الدنيا شعاعا ... أيها النور الحبيب
ذكر الناس عهودا ... هى من خير العهود
يوم كان الصوم معنى ... للتسامى والصعود
ينشر الرحمة فى الأر ... ض على هذا الوجود
يفتح الأرواح للحب ... ويمضى بالصدود
وتكاد العين أن تنظر ... من خلف الحدود
وتكاد اليد أن تلمس ... أسباب الخلود
هو عهد قد تقضى ... كله بر وجود
يوم كان الصوم معنى ... للتسامى والصعود

(ج) هلال شوال :

وهو أحب الأهاليل الى الناس بعامة ، والى الشعراء بخاصة ؛ لأنه يرفع عنهم قيود الصيام ، ولأنه يأتى بعيد الفطر الحبيب لديهم .

وهلال شـــوال ، يضرب به المثل للشيء البهيج الذى يسر به النـــــاس ، ويحتفلون بالنظر اليه !!

وفى هذا المعنى يقول أبو تمام فى وصف مصلوب :

رمقـــوا أعالى جـــذعه فكأنمـــا رمقـــوا الهلال عشـــية الافطار

ويقول ابن المعتز فى وصف جميل :

مر بنـــا والعيـــون ترمقـــه فى قد غصن ، وحسن تمثـــال
فخلتـــه والعيـــون تنظره من كل فج هـــلال شـــوال

ويقول أبو محمد البطليوسى فى وصف فرس :

كأن هلال الفطر لاح بوجهـــه فأعيننا شـــوقا اليـــه تسيل

لهذا لم يكن عجبا أن يذكره الشعراء كثيرا ، ويفتنوا فى وصفه الى أبعد الغايات !!

يقول ابن المعتز :

وهلال شـــوال يلوح ضياؤه وبنـــات نعش وقف بازائه
كبنانة مـــن مخلص لمـــا بدا وجه الوزير دعا بطول بقائه

ويقول السرى الرفاء ــ وهو من المكثرين فيه ــ :

قد جاء شـــهر السرور شـــوال وغال شـــهر الصـــيام مغتـــال
أمـــا رأيت الهـــلال يرمقـــه قـــوم لهم ــ أن رأوه ــ اهلال
كأنه قيـــد فضـــة حـــرج فض عن الصـــائمين فاختـــالوا

ويقول فيه :

ولاح لنـــا الهـــلال كشطر طوق على لبـــات زرقـــاء اللبـــاس

ويقول :

وكأن الهـــلال نون لجـــين غرقـــت فى صـــحيفـة زرقـــاء

ويقول :

ولاح هـــلال الفطر نضـــوا كأنه ســـنان لواه الطعن فى رأس عامـــل

ويقول فيه بعض الشعراء :

اسـقنى الكأس ياندیمى فقـد عا دُ بعيــد الصـيام عهدُ الوصـال
ما رأينـا الهـلال حتى رأينـا كل شخص منـا شـبيه الهـلال

ومن الطرائف : أن الملك المعظم الشاعر الأديب عيسى الأيوبى كان قد طلع الى مئذنة دمشق لرؤية هلال شوال ومعه القاضى والشهود . فلم ير الهلال أحد منهم ولكن رأته جارية من محظياته ، فقال الملك المعظم لابن القصار الشاعر : قل فى ذلك شيئا ؛ فقال ابن القصار :

توارى هلال الأفق عن أعين الورى وغطى بسـتر الغيم زهوا محيـاه
فلمـا أتـاه لاجتـلاء شـقيقه تبـدى له دون الأنـام فحيـاه

ويقول على بن ظافر الأندلسى : اجتمعت ليلة مع القاضى الشاعر أبى الحسن ابن النبيه ، ومعنا جماعة من شعراء مصر ، فأنشدهم ابن النبيه قول مؤيد الدين الطغرائى فى هلال الفطر :

قومـوا الى لذاتـكم يانيـام وأترعـوا الكأس بصـفو المـدام
هـذا هـلال العيـد قـد جـاءنا بمنجـل يحصـد شـهر الصـيام

فقال ابن النبيه : لو شبه الهلال بمنجل يحصد نرجس النجوم لكان أولى .

ثم قال :

انظر الى حسن هلال بدا

فقلت :

يذهب من أنواره الحندسا (١)

فقال :

كمنجل قد صيغ من فضة

فقلت :

يحصد من زهر الدجى نرجسا

قال ابن ظافر : ثم زدت على هذا المعنى زيادتين بديعتين ، يدركهما النـــاقد البصير فقلت :

أما ترى الهـــلال يخفى أنجم الأفق   بنــــور وجـهـــه الوســـيم

كمنجــل من فضـــة يحصـــد من   روض الظـــلام نرجس النجـوم

ماينظر اليه عند رؤية الأهلة :

جاء فى مجموعة ابن سينا الكبرى فى العلوم الروحانية ما يأتى :

المحرم	: ينظر عند رؤية هلاله الى الماء أو الى النيل .
صـــفر	: ينظر الى كف نفسه .
ربيع الأول	: ينظر الى ذهب أو فضة .
ربيع الآخـــر	: ينظر الى وجه حسن .
جمادى الأولى	: ينظر الى طعـــام حلو .
جمادى الآخرة	: ينظر الى السماء ويقرأ الفاتحة .
رجب	: ينظر الى محل عال ، ويقرأ ما تيسر من القرآن .
شـــعبان	: ينظر الى أماكن عالية ، ويقرأ الصمدية ثلاث مرات .
رمضـــان	: ينظر الى محل عال ، ويقرأ ما تيسر من القرآن .

(١) الحندس : الظلمة ، والليل المظلم .

شـــوال : ينظر الى السماء ، ويقرأ « ألم نشرح » .
ذو القعدة : ينظر الى فضة أو لؤلؤ أو معدن .
ذو الحجة : ينظر الى ذهب أو فضة أو كتاب .

حلواء رمضان

أمتنا العربية بعامة تحب الحلواء ، وكان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحب الحلواء والعسل .

وقد سأله ابن عباس : أى الشراب أفضل ؟ فقال : الحلو البارد : أى العسل.

ويقول معمر العرب أبو عبيدة : يقول العرب : كل طعام لا حلواء فيه ، فهو خداج (١) : أى ناقص غير تام .

وقال رجل للأحنف بن قيس : ما شىء أبغض الى من الحلواء ! فقال له : رب ملوم لا ذنب له .

ويحكى الزمخشرى فى ربيع الأبرار : أن رجلا اشترى أحمالا من السكر ، وأمر أن يصنع منها مسجد ذو شرفات ومحاريب وأعمدة منقوشة ، ثم دعا الفقراء فهدموه ونهبوه ! !

وكانت الحلواء يختم بها الطعام كما نفعل نحن الآن ؛ ومن كلام ابن القاسم : العوائد أحمد من الباديات ، والفوائد فى النتائج لا فى المقدمات ، كما ختم الطعام بالحلواء ، ونسخ الظلام بالضياء ، وبعث محمد خاتم الأنبياء !.

ويقول بختيشوع : الحلواء كلها ؛ حقها أن تؤكل بعد الطعام ، لأن للمعدة ثورانا عقب الامتلاء كثوران الفقاع (٢) ، فاذا صادفت الحلاوة سكنت .

---

(١) الخداج ككتاب فى الأصل : القاء الناقة ولدها لغير تمام .
(٢) الفقاع كرمان : شراب يرتفع الزبد فى رأسه .

ثم يقول : قول الناس : ان فى المعدة زاوية لا تسدها الا الحلاوة على أصله ، والآكل — اذا اشتهى الحلاوة — ثم فقدها — وجد حواسه ناقصة •

أنواع الحلواء :

وأشهر أنواع الحلواء عندهم :

١ — التمر مع الزبد :

ويحبه أهل البداوة بخاصة ، وفيه يقول الشعبى : ما رأيت فارسا أحسن من زبد على تمر ، وأنشد لبعض الشعراء :

ألا ليت لى خبزا تسربل رائبا وخيلا من البرنى (١) فرسانها الزبد

وقال الحجاج لجلسائه : ليكتب كل رجل فى رقعة أحب الطعام اليه ، ويجعلها تحت مصلاه •

فاذا الرقاع كلها الزبد والتمر ! !

٢ — الخبيصة أو الخبيص :

ويعمل فى الأصل من السمن والتمر ، وقد يعمل من العسل ونقى الدقيق ، وفعله : خبص يخبص بكسر الباء وضمها ، وخبص بالتشديد ، وتخبص ، واختبص •

وكان سفيان يقول : لابد للعاقل فى كل أربعين يوما من خبيصة تحفظ عليه قوته •

ويقول الزمخشرى — نقلا عن بعضهم — : الخبيصة : خاتمة الخبز •

ويحكى مالك بن أنس عن ربيعة الرأى : أكل الخبيص يزيد فى الدماغ •

وأول من خبص الخبيصة عثمان رضى الله عنه ، خلط بين العسل ونقى الدقيق ، ثم بعث به الى الرسول — صلى الله عليه وسلم — فى منزل زوجه السيدة « أم سَلَمة » فقال : من بعث بهذا ؟ فقالوا : عثمان •

(١) البرنى كنجدى : التمر •

فرفع الرسول الكريم وجهه الى السماء ، وقال : « اللهم ان عثمان يسترضيك فارض عنه » .

٣ — الفالوذج بفتح الذال :

حلواء تعمل من الدقيق والماء والعسل .

ويؤخذ من وصفها فى الشعر : أنها تعمل من لباب البر والسمن والشهد كما سيأتى .

وقد جاء الفالوذج بهذه الصيغة فى القاموس . وحكى الجوهرى فى الصحاح: الفالوذ والفالوذق ولا تقل الفالوذج . وفى شفاء الغليل : فالوذ وفالوذق : معربان عن « بالوذة » : المعروفة عندنا بالبالوظة . ويقال :أيضا الفولاذ والفالودج .

وفى الحديث : أن النبى عليه الصلاة والسلام «كان يأكل الدجاج والفالوذ»

وأول من اتخذه من العرب عبد الله بن جُدعان ، وكان سيدا شريفا من مطعمى قريش كهاشم بن عبد مناف .

وذلك : أنه وفد على كسرى وأكل لديه الفالوذ ، فابتاع من عنده غلاما يصنعه وقدم به مكة فصنع الفالوذ ، ووضع موائده بالأبطح الى باب المسجد ثم نادى : من أراد أن يأكل الفالوذ فليحضر .

فكان ممن حضر أمية بن أبى الصلت الشاعر — وكان يمدحه كثيرا — فقال يصفه — وهو أول من وصفه من العرب :

لكل قبيلة رأس وهاد ... وأنت الرأس تقدم كل هادى (١)
له داع بمكة مشمعل (٢) ... وآخر فوق دارته ينادى
الى ردح (٣) من الشيزى ملاء ... لباب البريلبك بالشهاد

---

(١) الهادى : العنق والمتقدم .
(٢) المشمعل بوزن مستقل : النشيط .
(٣) الردح كسفن : جمع رداح بفتح الراء وهى الجفنة العظيمة . والشيزى بكسر الشين : خشب أسود يتخذ للقصاع ، أو هو الأبنوس أو خشب الجوز .

وكان لابن جدعان جفان يأكل منها القائم والراكب ، ويروى أن صبيا وقع فى احداها فغرق ! فضرب بها المثل فى العظم •

وسمع الحسن البصرى قائلا يعيب الفالوذ ، فقال : لباب البر ، بلعاب النحل ، بسمن الماعز ! ما عاب هذا مسلم قط ، ثم تلى قوله — تعالى — : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق »

وفى رواية بخالص السمن بدلا من « سمن الماعز » •

وقد وردت فى الفالوذ طرائف خليقة بالنشر •

منها أنه قيل لأبى الحارث جمين : ما تقول فى الفالوذج ؟ •

فقال : وددت أن الموت والفالوذ اعتلجا فى صدرى الى يوم القيامة ! والله لو أن موسى لقى فرعون بفالوذج لآمن ، ولكن لقيه بعصا !!

وجلس الغاضرى يأكل فالوذج على مائدة يزيد بن عبد الملك الأموى ، فجعل الغاضرى يأكل ويسرع ! فقال يزيد : أرفق بنفسك فان الاكثار منه يقتل ! فقال الغاضرى : منزلى على طريق المقابر ، وما رأيت جنازة قط ، قيل : ان صاحبها مات من أكل الفالوذج !

وجلس أعرابى على مائدة سليمان بن عبد الملك ، فأتى بفالوذج فأخذ الأعرابى يأكل منه بشراهة !

فقال سليمان : أتدرى ما تأكل يا أعرابى ؟ فقال بلى يا أمير المؤمنين ، انى لأجد ريقا هينا ، ومزدردا لينا ، وأظنه الصراط المستقيم الذى ذكره الله فى كتابه !!

فضحك سليمان وقال : أزيدك منه يا أعرابى ؟ فانهم يذكرون أنه يزيد فى الدماغ •

فقال الأعرابى : لا تصدق يا أمير المؤمنين ، فلو كان الأمر كذلك لكان رأسك مثل رأس البغل !!

وقيل لأعرابى على مائدة بعض الرؤساء : لم يشبع أحد من الفالوذ الا مات !!

فأمسك الأعرابى قليلا يفكر ويقدر ، ثم ضرب فيه بيده الخمس ، وقال : استوصوا بعيالى خيرا !!

وجلس أبو هفان الشاعر وأبو العيناء على مائدة فيها فالوذ حار .

فقال أبو هفان لأبى العيناء : هذا آخر مقامك من جهنم !

فقال أبو العيناء ــ وكان حاضر الجواب ــ : ان كان حارا فبرده بشعرك !!

وبعث رجل الى مزبد المدنى بفالوذ قليل الحلاوة !

فقال مزبد : ينبغى أن يكون هذا الفالوذ قد عمل قبل أن يوحى ربك الى النحل ! !

وكان أحمد بن خالد وزير المأمون مضرب المثل فى الشراهة ! وقد قيل : انه ولى رجلا كورة جليلة « مدينة أوصقعا » لأنه أهدى اليه خوانا من الفالوذ !!

ويقول العسكرى فى وصف الفالوذ :

حمراء فى بيضاء فضية ... وظرف كافور وحشو الخَلوق
يطوف الدهن بأرجائه ... اطافة الدمع بجفن المشوق
كأنما اللوز بحافاته ... أنصاف در ركبت فى عقيق

ويقول آخر :

ولاطفه بالشهد المخلق وجهه ... وان كان بالالطاف غير خليق
كأن اصفرار اللوز فى جنباته ... كواكب تبر فى سماء عقيق

وكان الفالوذ الذى يباع فى الأسواق غير محمود عندهم ، فضربوه مثلا للحسن المنظر السيىء المخبر ، وفى ذلك يقول الشاعر :

أعزز على بأخلاق وسمت بها　　عند البرية يا فالوذج السوق

ويقول ابن حجاج يذم صديقا :

ليس له فى الجميـــل رأى　　ولا بفعل الجميـــل طـاقه
كأنــه فى القميص يمشى　　فالوذج الســـوق فى رُقاقه

٤ ــ اللوزينج بسكون الواو وكسر الزاى وفتح النون :

شبه القطائف يؤدم بدهن اللوز ، فارسى معرب ٠

وكان يسمى عندهم : قاضى قضاة الحلاوات !!

وقيل لبعضهم : التمر يسبح فى البطن ، فقال : على هذا التقدير ، اللوزينج يصلى فيها التراويح ٠

وقد وصــفه ابن الرومى بقصيدة مشهورة تعد أبدع ما قيل فيه منهـا :

لا يخطئنى منـــك لوزينج　　اذا بدا أعجب أو أعجبــــا
لو شـــاء أن يذهب فى صحنه　　لسـهل الطيب له مذهبــا
يدور بالنفحـــة فى جـامه　　دورا ترى الدهن له نولبـــا
مستكثف الحشـــو ولـكنه　　أرق جلدا من نسيم الصـــبا
من كل بيضـــاء يود الفتى　　أن يجعــل الكف لهـا مركبا
لو أنه صـــور مــن خبزه　　ثغر لكان الواضح الأشـنبا

ويعد الفالوذج واللوزينج أنفس الحلويات على الاطلاق ، وكانت المنافسة بينهما أو قل : بين آكليهما حادة شديدة !

ويقصون فى ذلك : أن الرشيد وأم جعفر زبيدة اختلفا فيهما : أيهما أطيب ؟

فاحتكما الى القــاضى أبى يوسف ، فقــال يا أمير المؤمنين لا يحكم بين غائبين ، اذا حضر الخصمان حكمت بينهما !

فجيء اليه بطبق من كل منهما ، فجعل يأكل من هذا لقمة ومن ذاك اقمة حتى أتى عليهما !!

فقال له الرشيد : احكم بينهما .

فقال : والله يا أمير المؤمنين ، كلما أردت آن أقضى لأحدهما جاء الآخــر بحجته !!

فضحك الرشيد وأمر له بألف دينار ، وأمرت له زبيدة بألف دينار الا واحدا تأدبا مع الخليفة .

أشهر حلاوات رمضان :

ومع أن الحــلاوات تؤكل فى كل زمان ومكان ، الا أن ثلاثة منهــا يكثر صنعها وأكلها فى شهر الصيام لدى الافطار بخاصة .

وهى : الكنافة والقطائف ثم تأتى بعدهما الزلابية .

ومن العقائد الموروثة : أن للحلواء أثرا محمودا فى رد قوة الصائم اليه ؛ يقول وهب بن منبه : اذا صام الرجل زاغ بصره ، فاذا أفطر على الحلوى رجع اليه بصره . ويقول الدكتور نجيب عبد السلام طبيب العيون : ان الصائم عادة يكثر من أكل الحلوى ، وهذا يفيد العيون عموما ، والعيون المريضة على وجه الخصوص .

وقد بلغ من شهرة الكنافة والقطائف : أن جلال الدين السيوطى جمع ما قيل فيهما فى كتاب سماه : « منهل اللطائف فى الكنافة والقطائف » .

الكنافة :

يذكر ابن فضل الله العمرى : أن أول من اتخذها من العرب معاوية
١ ابن أبى سفيان ، وكان يأكلها فى السحور ، وذلك أنه شكا الى طبيبه الجوع
ـ وكان معاوية من الأكلة المشهورين ـ فوصفها له •

وصف الكنافة :

يقول فيها أبو الحسين الجزار المصرى ـ وهو من المكثرين فيها ـ :

سقى الله أكناف الكنافة بالقطر وجاد عليها سكر دائم الدّر
وتبا لأوقات المخلل انها تمر بلا نفع وتحسب من عمرى

والمراد بالقطر هنا : ما تسقى به الكنافة من العسل وذوب السكر •

ويقول الجزار أيضا :

الام أرى وجه الكنافة مغضبا ولولا رضاه لم أرد رمضانها
عجبت لها من رقة كيف أظهرت على جفاء صدّ عنى جفانها

ويقول شهاب الدين الهائم :

اليك اشتياقى ياكنافة زائد ومالى غناء عنك كلا ولا صبر
فلا زلت أكلى كل يوم وليلة ولا زال منهلا بجرعائك القطر

ويقول الجزار يستهدى قطر الكنافة :

أيا « علم الدين » الذى جود كفه براحته قد أخجل الغيث والبحرا
لئن أمحلت أرض الكنافة اننى لأرجو لها من سحب راحتك القطرا

ويقول ابن نباته :

لجود قاضى القضاة أشكو عجزى عن الحلو فى صيامى
والقطر أرجو وما عجيب للقطر يرجى من الغمام

ويقول أيضا :

أمولاى عنـدى للثنـاء قصـائد | تريك رياض اللفظ باسمـة الزهر
وتشتاق من احسانك الحلو رسمها | وما عجب شوق الرياض الى القطر

ويقول مع التضمين :

شـكرا لبرك ياغيـث العفـاة ولا | زالت مدائحـك العليـاء تنتخـب
قد جدت بالقطر حتى زدت، فى طمعى | « وأول الغيث قطر ثم ينسـكب »

القطائف :

فى لسان العرب : طعام يسوى من الدقيـق المرق بالمـاء ، شبهت بخمل القطيفة التى تفترش. والتشبيه صحيح لأن القطيفة دثار مخمل. وفى القاموس : القطـائف المـأكولة لا تعرفهـا العرب ، أو لمـا عليها من نحو خمل القطائف الملبوسة .

وقد أكثر الشعراء من وصفها :

يقول أبو هلال العسكرى :

كثيفـة الحشـو ولكنـها | رقيقـة الجـلد هوانيـه
رشت بمـاء الورد أعطافهـا | منشـورة الطى ومطـويه
كأنمـا مـن طيب أنفـاسها | قـد سرقت من نشر « ماريه »
جاءت مـن السـكر فضيـة | وهى مـن الأدهـان تـبريه

ويقول برهان الدين القيراطى ــ وفيه اكتفاء بديعى ــ :

مولاى «نور الدين» ضيفك لم يزل | يروى مكارمك الصحيحة عن «عطا»
صدقت قطائفك الـكبار حـلاوة | بفمى وليس بمنكر صدق «القطا» (١)

---

(١) القطا : نوع من الحمام يقول : قطا قطا فضرب به المثل فى الصدق .

ويقول الصفدى — وقد استعمل التضمين — :

رعى الله نعماك التى من أقلها قطائف من قطر «النبات» لها قطر (١)
أمد لها كفى فأهتز فرحة « كما انتفض العصفور بلله القطر »

ويقول الصفدى أيضا — وفيه تورية — :

أتانى صحن من قطائفك التى غدت وهى روض قد تبلل بالقطر
ولا غرو ان صدقت حلو حديثها وسكرها يرويه لى عن «أبى ذر» (٢)

ويقول ابن نباتة — وقد جمع بين التورية والتضمين والاكتفاء — :

أقول وقد جاء الغلام بصحنه عقيب طعام الفطر يا غاية المنى
بعيشك قل لى : جاء صحن قطائف «وصرح بمن تهوى ودعنا من الكنا» (٣)

ويقول ابن الوردى :

بعثت قطائفا روى حشاها قطرك الغامر
فسكرها « أبو ذر » ومرسل صحنها « جابر »

ويقول السراج الوراق :

قطائفك التى رقت جسوما لما ضغنها كما كثفت قلوبا
كغيم رق لكن فيه قطر غدا القفر الجديب به خصيبا

ويقول ابن المعلم المرصص :

وحقك ما أوليتنى من قطائف ألذ وأحلى من وصال «القطائف» (٤)
وقد ضمنت مثل العتاب حلاوة ألم ترها ملفوفة كالصحائف

---

(١) النبات : يريد به : سكر النبات .
(٢) أبو ذر : يريد انه مسحوق . وفيه تورية .
(٣) من الكنا : أى الكنافة فحذف الفاء والتاء اكتفاء .
(٤) القطائف : اللاتى يمشين هونا .

ويقول ابن المشد :

وقطـائف مثـل البـدو رأتت لنـا مـن غير وعـد
فحسبـتها — لما بـدت فى صحنها — أقراص شـهد

ويقول بعض الشعراء :

ألذ شىء على الصـيام من الحلاوات فى الطعـام
قطـائف نضـدت فحـاكت فرائـد الـدر فى النظـام
منـومات على جنـوب فى الجـام كالصـبية النيـام

ويقول آخر :

قطـائف قـد حشيت باللوز والعسل الماذى (١) والجـوز
تسبح فى آذى (٢) دهن الجوز سررت لما وقعت فى حـوزى
سرور « عباس » بقرب « فوز » (٣)

ويقول القاضى محيى الدين المصرى — فى قطائف رديئة أهديت اليه — :

هـذى قطيفتـك التى لا تشـتهى نقـلا وعقـلا
حشـيت بيـرد يابس فلأجـل ذاك الحشـو تقلى

وبعض الشعراء يفضل القطائف على الكنافة ، وفى ذلك يقول سعد الدين ابن عربى :

قال القطـائف للكنـافة مـا بالى أراك رقيقـة الجسـد
أنا بالقـلوب حلاوتى حشيت فتقطعى مـن كثرة الحسـد

---

(١) الماذى : العسل الأبيض .

(٢) الآذى : الموج .

(٣) يريد عباس بن الأحنف وفوز معشوقته .

الزلابية :

ولم يكثر الشعراء من وصفها ، ومن قول ابن الرومى يصفها ويصف قاليها — وهو من المنهومين بألوان الطعام — :

ومستقر على كرسيه تعب — روحى الفداء له من منصب تعب
رأيته سحرا يقلى زلابية — فى رقة القشر والتجويف كالقصب
يلقى العجين لجينا من أنامله — فيستحيل شبابيكا من الذهب

وقيل : هى مولدة ، والصحيح : أنها عربية لورودها فى رجز قديم •

ومما يتصل بذلك : أن أهل بلدنا معروفون بصنع حلواء تدعى « فطيرة الصحن » وتصنع للضيوف فى رمضان •

وقد أكلها عندى الصديق المرحوم الشاعر محمد الأسمر ، فحدث بها بعض الاخوان ، فكان أن حتموا على أن أصنعها لهم بكمية كبيرة كان فيها « خراب البيت وكب الزيت » كما نقول فى الصعيد ! فقلت أشكو هذه الحادثة بشعر فكاهى :

عذيرى من الشاعر العبقرى — وان كان عندى أبر الصحاب
جنى — والجناية من مثله — على شرف القصد — فوق العتاب
شدا « بالفطيرة » شدو الهزار — على عذبات الغصون الرطاب
وشهرها بين أهل القريض — فكل من الغيظ يفرى اهابى
وجاء الى منزلى معشر — غلاظ الرقاب يدقون بابى
وصاحوا بى : اخرج عداك الأمان — فيومك مثل جناح الغراب
حكمنا عليك فخل الخلاف — فأنف المخالف تحت التراب
وعجل بها كأكف الملاح — تأنق فى صبغها بالخضاب
ومحشوة « بالزبيب » الأحم — ومسقية بالشهاد المذاب
اذا جال فيها بنان الأديب — تنسم منها أريج الملاب

وان أوغلت يـده فى الصـميم ... أتتـه بكل عجيب عجـاب
ذخائر فى جوفهـا أودعـت ... كمـا سكن الدرجـوف العبـاب
وان زدت فى الكرم الحـاتمى ... فأهلا بها بعد أكل « الـكباب »
فمـزقت ثوبى لفـرط الأسى ... وصحت بملء فمى يا « خرابى »
وقلت لهـم : قصـة صاغهـا ... أديب يحـلق فـوق السحـاب
فلا تؤمنـوا بالـذى قاله ... وان كان ينطق فصـل الخـطاب
صديق يشيـد بقـدر الصـديق ... ويضـفى عليـه قشيب الثيـاب
وقد يُكذب الشـاعر العبـقرى ... وخير من الصـدق بعض الـكذاب
أترضـون أن تقـودى تبيـد ... وقد جمعت من « دموع الكلاب »
سأرحـل عـن منزلى القـاهرى ... الى الريف ، والريف خصب الجناب
وان أدم جسـمى لذع البعـوض ... وان صـك سمعى طنـين الذباب
وأبقى هنـالك فى معـزل ... الى أن يحين أوان « الحسـاب »
وكيـف بصـبرى على عيشـة ... تسـلم ذقنى لـكف « المرابى »
وقـد يهجـر المـرء أوطانه ... اذا وجد الأمن فى الاغـتراب

سحور رمضان

السحور — بفتح السين — ما يؤكل وقت السحر ، وهو قبيل الفجر •

والسحور بالضم : فعل الصائم نفسه • وتسحر أيضا : أكل السحور • وقد جرت السنة أن يتسحر الصائم تقويا على الصيام ، لأن الشارع الحكيم لا يريد من الصوم التحطيم والتعذيب ، بل يريد التصفية والتهذيب، ولهذا كان من المستحب تعجيل الفطور ، وتأخير السحور ، ترويحا من الجهد ، وحفظا لقوام البدن ، ويسمى السحور المتأخر : الغداء المبارك لقرب وقته من وقت الغداء • وفى الحديث الشريف « لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر وأخروا السحور » وكان صلى الله عليه وسلم — « يفطر قبل أن يصلى المغرب على رطبـات ، فان لم يجد رطبات فتمرات ، فان لم يجد تمرات حسا حسوات من ماء » •

ولما كان السحور يقع فى أخريات الليالى حيث تهدأ الجـوارح ، وتقر الجنوب ، ويلذ الاغفاء ، اتخذت الوسائل قديما وحديثا ، لتنبيه الصائمين لوقت التسحر ، وبخاصة أن صحة الصوم تتوقف على معرفة نهايته بالتحديد الدقيق .

ففى عصرنا مثلا تطلق المدافع ، وتدق الطبلات ، مع أدعية خاصة فى المدن ، ويكتفى بالوسيلة الأخيرة ـ دق الطبلات ـ فى القرى والدساكر .

أما فى العصور السالفة ، فقد كانت لهم وسائلهم الملائمة لحياتهم ، فمن ذلك التغنى بشعر « القوما » وهو شـعر شعبى له وزنان مختلفان ، اخترعه بغدادى يدعى « أبا نقطة » للخليفة الناصر لدين الله العباسى برسم السحور فى رمضان

وغلب عليه هذا الاسم من قول بعض المغنين لبعض : « قوما لنسحر قوما »

وقد أعجب الخليفة به وطرب لاستماعه . وكافأ أبا نقطة باجراء وظيفـة سنوية عليه .

ثم مات أبو نقطة وأعقب ولدا صغيرا حاذقا بهذا النظم ، فأراد أن يعلم الخليفة بموت أبيه ليأخذ وظيفته ، فلم يتيسر له ذلك ، فانتظر حتى جاء رمضان ووقف فى أول ليلة منه مع أتباع والده تحت الطيارة وغنى « القوما » بصوت رقيق رخيم ، فاهتز له الخليفة وانتشى وطار كل مطار .

وحين هم بالانصراف انطلق ابن أبى نقطة ينشد :

يا سـيد السـادات   لك فى الكرم عـادات
أنـا ابن أبى نقطـه   تعيش أبى قـدمـات

فأعجب الخليفة بسلامة ذوقه ، ولطف اشارته ، وحسن بيانه مع ايجازه ، فأحضره وخلع عليه ، ورتب له ضعف ما كان لوالده .

ومما يجب أن يعرف أن التسحير لم يكن مقصورا على الرجال ، بل شاركت فيه النساء ، وقد وصف لنا احداهن الشيخ زين الدين بن الوردى بقوله :

عجبت فى رمضان من مسحِّرة　　　بديعة الحسن الا أنها ابتدعت
قامت تسحرنا ليلا فقلت لها　　　كيف السحور وهذى الشمس قد طلعت

فانوس السحور :

ومن وسائل التنبيه للسحور أيضا « فانوس السحور » وهو فانوس كان يضاء ويعلق على منار المساجد ، ويطفأ حين يحين وقت الرفع .

وقد داعب ضوء هذا الفانوس خيال الشعراء فى ذلك العصر ، فجادوا عليه بكثير من المقطوعات اللطيفة .

وأول من نظم فيه أبو الحجاج يوسف بن على الموسوم « بابن النعجة » تلبية لاقتراح جماعة من الأدباء عليه بغية تعجيزه ، فأنشأ يقول مرتجلا :

ونجم من الفانوس يشرق ضوءه　　　ولكنه دون الكواكب لا يسرى
ولم أر نجما قط قبل طلوعه　　　اذا غاب ينهى الصائمين عن الفطر

فأخذوا عليه : أن نجوم الصباح — وهى لا تحصر عددا — تنهى الصائمين بغيابها عن الفطر ، وألحوا عليه بالتقريع والتوبيخ فحمى فكره ، وأنشأ يقول :

هذا لواء سحور يستضاء به　　　وعسكر الشهب فى الظلماء جرار
والصائمون جميعا يهتفون به　　　كأنه « علم فى رأسه نار »

وفى الصباح تسامع الشعراء بالقصة فتباروا فى وصف هذا الفانوس ، فقال الرشيد أبو عبد الله :

أحبب بفانوس غدا صاعدا　　　وضوءه دان من العين
يقضى بصوم وبفطر معا　　　فقد حوى وصف الهلالين

وقال الفقيه أبو محمد القلعى :

وكوكب من ضرام الزند مطلعـــه تسرى النجوم ولا يسرى اذا رقبـا
يراقب الصبح خوفا أن يفاجئـــه فان بدا طالعـــا فى أفقـــه غربا
كأنه عاشــــــق وافى على شرف يرعى الحبيب فان لاح الرقيب خبا

وقال ابن ظافر الأزدى ــ وهى واحدة من أربع قطع ــ:

ألست ترى حسن المنـــار وضوءه يرفع من جنــح الدجنة أســـتارا
تراه ــ اذا جن الظلام ــ مراقبـا له ، مضرما فى قلب فانوســه نارا
كصب بخود من بنى الزنج سـامها وصالا وقد أبدى ــلترغبــ دينارا

وقال ابن النبيه :

حبــذا فى الصيام مئـــذنة الجا مع والليـــل مسـبل أذياله
خلتها والفـــانوس اذ رفعتـــه صـــائدا واقفا لصـــيد الغزاله

وقال ابن نفطويه :

نصبوا لواء فى الســحور وأوقدوا فى رأســـــه نارا لمن يترصــ د
فكأنه ســـــبابة قــد قمعت ذهبـا وقامت فى الدجى تتشـــهد

وقال شهاب الدين بن يعقوب :

رأيت المنـــار وجنح الظـــلام من الجـــو يســدل أستاره
وحلق فى الجــو فانوســــه فذهب بالنــــــور أقطاره
فقلت « المحلق » قـد شــب فى ظــلام الدجى للقــرى ناره
وخلت المنــــار وفانوســـــه فتى قام يصرف دينـــــاره

وقال الفقيه بن يحيى السولى :

وليلة ملئت أشـــداقها لعســـا واستوضحت غرر من ثغرها شــنبا
ولاح كوكب فانوس السحور على انسان مقلتهـا النجــلاء واشتهبا
حتى كان دجاها ــ وهو ملتهب ــ زنجيـــة حملت فى كفهـا ذهبـا

وقال الشريف أبو الفضل جعفر :

كأنما الفـــانوس فى صـــاريه لما اتقـــدا
لـــواء نصر مـذهب فى رأس رمح عقـــدا

وقال مظفر الأعمى ـ وقد جمع معانى القطع السابقة بعد أن سمعها ـ :

أرى علما للناس فى الصـــوم ينصب على جامع ابن العاص أعلاه كوكب
وما هـــو فى الظلمـاء الا كـأنه على رمح زنجى ســـنان مذهب
ومن عجـب أن الثريا سماؤهـــا مع الليـــل تلهى كل من يترقب
فطـــورا تحييه ببـــاقة نرجس وطـورا يحييهـــا بكأس تلهب
وما الليـــل الا قانص لغـــزالة بفـــانوس نار نحوهـــا يتطلب
ولم أر صيـــادا على البعـــد قبله اذا قربت منـــه الغـــزالة يهـرب

السحور فى البلاد الاسلامية :

كان المسلمون فى عهد الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ يعرفون جواز الأكل والشرب بأذان « بلال » ، ويعرفون المنع بأذان « ابن أم مكتوم » وفى الحديث الشريف : « ان بلالا ينادى بليل فكلوا وشربوا حتى ينادى ابن أم مكتوم » .

وهـذا يشبه ما يعرف لدينا اليوم فى الحواضر بمدفع السحور ، ومدفع الرفع .

وكان التسحير قديما فى الديار المصرية بالمسجد الجامع : أن يقول المؤذنون تسحروا ، وكلوا واشربوا وما أشبه ذلك من الأقـوال ، ثم يقرءون قوله ـ تعالى ـ : « يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » ويكررون ذلك مرارا .

ثم يقرءون قوله — تعالى : « ان الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا » الى قوله « انا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا » ثم يعقبون على ذلك بانشاد القصائد وما اليها .

أما التسحير فى غير الجوامع ، فقد كان بالطبلة المعروفة لدينا الآن ؛ يطوف بها أصحاب الأرباع وغيرهم على البيوت ضاربين بها .

وكان أهل الاسكندرية واليمن والمغرب يمارسون التسحير بدق الأبواب على أصحاب البيوت ، والمناداة عليهم : « قوموا كلوا » .

ولا يزال هذا اللون معروفا فى الأحياء الوطنية ، ويفخر من ينادى عليهم بذلك ! !

وكان أهل الشام يفعلون ذلك بدق الطار ، وضرب الشبابة ، والغناء والرقص واللهو واللعب .

وكان بعض أهل المغرب ينفخون فى النفير على منارات المساجد سبع مرات ، ثم ينفخون فى الأبواق بعدها سبعا أو خمسا .

فاذا انقطعوا عن الضرب ، انقطع المتسحرون عن الأكل .

عيد الفطر

وهو أحد العيدين العظيمين فى الاسلام ، ويعد من المواسم الشعرية المرموقة ، وقد أنتج لنا أدبا وشعرا رائعا خصيبا ، ربما فاق ما أنتجه رمضان .
ولا يعنينا منه الا ما يتصل بموضوع المحاضرة .

فمن ذلك : التهانى الخالصة البريئة من الرفث لخليفة جليل أو سلطان عظيم ، أو رئيس وقور ، كرائية البحترى التى يهنىء فيها المتوكل بصومه المبرور ، وعيده الأغر ، ويصف فيها خروجه للصلاة يحف به جيشه الجرار —

ويشير الى خطبته البليغة ، وهى من أسنى المدائح فى هذا المقام ، وأولها :

بالبر صمت وأنت أفضل صـــائم ... وبســـنة الله الرضـــية تفطر
فانعم بعيــد الفطر عيــدا انه ... يوم أغـــر من الزمان مشـــهر

ومن تهان يشوبها شىء من الفتك والمجون كتهنئة الصابى لعضــد الدولة البويهى :

أســــيدنا هنئت نعمــاك بالفطر ... ووقيت ما تخشــاه من نوب الدهر
مضى الصوم قد وفيته حق نســكه ... ووفاك مكتــوب المثــوبة والأجر
وللفطر رســم للسرور وســـنة ... ومثلك من أحيــا لنا ســنة الفطر
ولا بد فيــه من سماع وقهـــوة ... تقضى بهــا الأوطار من لذة السكر
تواصـــل قصــفا بين يوم وليلة ... دراكا فنستوفى الذى فات فى الشهر
فمر بالذى نبغى وكن عند ظنــا ... فلا زلت فينـــا نافذ النهى والأمر

ويقول الخالدى فى عضد الدولة أيضا :

هنيئـــا مريئـــا بأجر أقام ... وصـــوم ترحل عنك ارتحـــالا
وفطر تواصـــل اقبــــاله ... لأن له بالســـعود اتصـــالا
رأى العيــد فعلك عيـــدا له ... وإن كان زاد عليـــه الجمـــالا
وكبـــر حـــين رآك الهـــلال ... كفعلك حين رأيت الهـــلالا
وان رمضـــان أطــاح الكئوس ... فشـــوال يأذن فى أن تشـــالا (١)
فواصـــل بيمن كئوس الشمول ... يمينـــا مقـــابلة أو شمـــالا

ومن دعوة صارخة للقصف ، تحمل معنى التشفى من رمضان والشماتة به .

---

(١) تشال : ترفع فى الآيدى .

يقول أبو نواس :

من شـــوال علينا وحقيق بامتنـــــان
جـاءنا بالقصف والعز ف وتغريد القيـــان
أحسن الأشـــهر لى أبعـدها من رمضـان

ويقول أحمد بن يزيد :

ألا فاســقيانى من معتقـة الخمر فلا عذر لى فى الصبر أكثر من شهر
وان كنتما لم تعلمــا فتعلمــا بأن زمان الصـوم ليس من العمر

ويقول أبو على البصير :

اذا شـــال شـــوال عكفنـــا على زق وباطيـــة رزوم (١)
وان هـم أطـــاف بنـا عركنـا بأيـدى الكـأس آذان الهمـوم

ويقول آخر :

أقـول لصـاحبى وقـد بـدا لى هـــلال الفطر من خـلل الغمـام
سنسكر سـكرة شـنعاء جهـرا وننعر فى قفـا شــهر الصيـــام

ولعل السرى الرفاء أكثر الشعراء مبالغة فى تصوير المرح الذى يفيضه عيد الفطر على الصائمين ، ووصف ما يحسونه من لذة الانطلاق والتحرر !! يقول :

ألا عـد لـى ببـاطيـــة وكاس وزع همـى بابـريـق وطـــاس
وذاكرنى بشـــعر أبى فراس عـلى روض كشعـر أبى نـواس
وغيـم مرهفـــات البرق فيـــه عـــوار والريـــاض به كواسى
وقد سـلت جيوش الفطر جهـرا على شهر الصيام سـيوف باس

---

(١) ثابتة قائمة على الأرض .

ويقول :

مرحبـــا بالصبـــوح فى الظلمــاء وبعـــذراء من يـــدى عـــذراء
وبسكـــرين من جفـــون غـــزال ســـاحر لفظـــه ، ومن صهبـاء
واحمرار الكئوس من كف ســاق صـــيغ من مـــاء وردة بيضـــاء
ضحكت أوجــه اللـــذاذة بالفطر ولاحـــت طـــوالـــع السراء
فكأن السرور الـــف حبـــانـــا منـــه بالوصـــل بعد طول الجفـــاء

ويقول :

تصرم شهر الصـــوم شهر الزلازل وشال به شوال شهر الفضـــائل
ودارت علينـــــا الراح بين أهلة تضىء وأغصـــان رطاب مـــوائل
فرحنا وفى أجســـامنا سحر بابل يدب وفى أيماننـــا خمـــر بابل

وكتب على بن جبلة الى أبى دلف العجلى ، يستسقيه نبيذا فى يوم عيد الفطر ، فوجه اليه بما كفاه ، وبمائتى دينار ، فقال يمدحه :

وأبيض عجـــلى رأيت غمـــامه وأســـيافه تقضى على الحـــدثان
مددت اليـــــه ذمتى فأجارهـــا وأغنى يدى عن غـــيره ولســـانى
شربت ورويت النـــــديم بماله وأدركت ثأر الراح فى رمضـــان
وكان لشـــــوال على ضمـــانة فكانت عطـــاياه ضمان ضمانى

وكتب الصاحب يستزير بعض اخوانه فى يوم العيد : غدا ياسيدى ينحسر الصيام ، وتطيب المدام ، فلابد أن نقيم أسواق الأنس نافقه ، وننشر أعـلام السرور خافقه ، فبالفتوة فانها قسم الظراف ، وتفرض حسن الاسعاف ، لمـا بادرتنا ولو على جناح الرياح ، ان شاء الله تعالى !!

وقد اقتفى شوقى ــ رحمه الله ــ اثر هؤلاء الجامحين فقال :

رمضــان ولى هاتها يا ســـاقى ... مشـــتاقة تسعى الى مشـــتاق
ما كان أكثـــره على ألافهـــــا ... وأقله فى طـــاعة الخــــلاق
الله غفـــــار الذنوب جميعهـــا ... ان كان ثم من الذنـــوب بـــواقى
بالأمس قد كنـــا سجينى طـــاعة ... واليـــوم مَن العيـــــد بالاطلاق
ضـــحكت الى من السرور ولم تزل ... بنت الـــكروم كريمـــة الأعــراق
هات اسقنيها غـــــير ذات عـــواقب ... حتى نراع لصيحة « الصفاق » (١)
صِرْفا مســــلطة الشـــعاع كأنما ... من وجنتيـــــك تدار والأحـــداق
حمراءَ أو صــــفراء ان كريمهــا ... كالغيـــــد ، كل مليحـــة بمــذاق
وحــــذارِ من دمهـــا الذكى تريقه ... يكفيك يا قاسى دم العشـــــــاق
لا تســـقنى الا دهـــــاقا اننى ... أسقى بكأس فى الهموم دهـــاق (٢)
فلعــــل سلطـــان المدامة مخرجى ... من عالم لم يحـــو غير نفـــاق

على أنه كان الى جانب هؤلاء المسرفين على أنفسهم بيئـــة المعتدلين الذين يمثلهم بعض الشعراء بقوله :

مضى رمضــــان محمــودا ووافى ... علينـــــا الفطر يقـــدمه السرور
وفى مر الشـــــهور لنــــا فنـــاء ... ونحـــن نحب أن تفنى الشـــهور

ثم بيئة النساك التى يمثلها أمثال الحسن البصرى ولا يخلو منهـــا عصر ومصر ؛ يقول ــ رضى الله عنه ــ وقد نظر الى قوم منصرفين من صـــلاة الفطر يتضاحكون ويتعابثون ــ : الله المستعان ! ! ان كان هؤلاء قد تقرر عندهم أن صومهم قد قبل ، فما هذا محل الشاكرين ! وان علموا أنه لم يقبل فما هذا محل الخائبين !

---

(١) الصفاق : الديك .
(٢) الدهاق : الممتلئة .

ومن السهل علينا أن نلحظ من بعض هذه الشواهد الأدبية : أن الأعياد الاسلامية فى العهد العباسى — وبخاصة فى عهود الضعف — أخذت تصطبغ بالصبغة الفارسية بغلبة النفوذ الفارسى والمدنية الفارسية المادية ، فلبست الأعياد الاسلامية صورة النيروز والمهرجان .

كما أنه من الانصاف أن نصرح : بأن هذه الروح العارمة التى تطالعنا من بعض الأشعار السالفة : انما تمثل بيئة الترف والنعيم فى الحواضر الكبرى ، الحافلة بألوان اللهو والعبث والتحلل ، وهى فى الوقت نفسه بيئة الشعراء الجامحين الذين يوجدون فى كل زمان ، وليسوا هم كل الشعراء ، ومع ذلك فحسبنا منهم أنهم كانوا يصومون ، والله — سبحانه — يقول : « فاتقوا الله ما استطعتم » « ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفار الرحيم » .

وقد اعتذر الله — جل ثناؤه — عنهم وأطمعهم فى رحمته ورضوانه بقوله « ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون مالا يفعلون » .

والحمد لله رب العالمين